جامعة المسيلة قسم التاريخ

دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: الاستشراق وتاريخ الوطن العربي المعاصر

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة الثالثة: دوافع الحركة الاستشراقية وأهدافها ج1

تمهيد: لقد حاول الدارسون فهم وتحليل الدوافع التي حركت النشاط الاستشراقي في مختلف مراحله حيث أبانت عملية الغربلة، عن تعدد الغايات التي دفعت المستشرقين إلى بذل كل تلك الجهود على مدار قرون، فكان أن تم حصر الدوافع في مجالات دينية، وسياسية استعمارية وما ينطوي تحتها من غايات اقتصادية وتجارية، فضلا عن الجوانب العلمية والمعرفية.

أولا/ الدافع الديني: يمكننا تلخيص العوامل المرتبطة بهذا الدافع في العناصر الآتية:

- أن جميع الباحثين يتفقون على أن بداية الاستشراق كانت من الكنيسة التي لعبت دورا رئيسيا في توجيه الأنظار والاهتمام بعامل التفوق الشرقي على الأوربيين، فعن طريق تقويم الفشل الذريع للحروب الصليبية 1096 – 1274م، تم التحول بالكنيسة إلى الغزو الفكري، الذي كان المستشرقون رواده والكنيسة مؤسسته.
- أن الرواد لحركة الاستشراق كانوا رهبانا وقساوسة، ولم تكن أعمالهم العلمية أبدا بمعزل عن دورهم الكنسي، ومن هؤلاء مثلا سلفستر الثاني المتوفى سنة 1003م، والذي وصل إلى التربع على عرش البابوية، وبطرس المحترم الذي توفي عام 1156م، والذي تولى رئاسة مجموعة أديرة منها دير " كلوني " بإسبانيا، الذي شهد صدور أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم عام 1143م بحسب اعتقاد البعض.
- أن المؤسسات الثقافية الاستشراقية، كانت في معظمها مؤسسات كنسية بناءا أو إشرافا أو تمويلا، كما أن غالبية الإنتاج الاستشراقي، تركّز حول أساسيات

العقيدة الإسلامية، فالقرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام، والسنة، ومسائل الفقه الإسلامي نالت حصة الأسد من الوقت والاهتمام، وحمل تناولها قديما وحديثا بث الشكوك والافتراضات الخاطئة والنتائج المسبقة.

كانت الجهود الأولى التي بذلها باحثون كنسيون لتحقيق فهم أكثر دقة للإسلام، مدفوعة إلى حد كبير بالرغبة في معرفة الأعداء، ولتفنيد الإسلام بوصفه دينا مزيفا وهرطقة باطلة، فنجد مثلا الأب بطرس المبجل رئيس دير كلوني باسبانيا المتوفى عام 1156م، يرى أنه لا يمكن تدمير الإسلام ما لم تفهم أخطاؤه، وسارت إلى جانب هذه النظرة رؤية ثانية تتعلق بالاستفادة من الثروة الفكرية المزدهرة آنذاك لدى العالم الإسلامي، فبدأت طلائع المستشرقين تفد على الأندلس خلال القرن العاشر الميلادي، ثم شرعوا بعد عودتهم في نشر المعارف المكتسبة بين أقوامهم وأنشأوا لذلك مدارس للعربية في روما وغيرها، فظهرت الترجمات إلى اللاتينية لكتب الطب والفلسفة والرياضيات.

وقد كان لفشل الحروب الصليبية أي الخيار العسكري، أن دفع ببعض الباحثين المنتمين إلى الكنيسة إلى الدعوة إلى بذل جهود على المدى الطويل لجذب المسلمين إلى النصرانية بشكل سلمي، ولن يتأتى ذلك إلا بتشجيع الدراسات المتعلقة بالإسلام ولغته، وفي هذا الصدد، ظهرت على يد الأب بطرس المبجل، أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام 1143م، وظلت معتمدة حتى القرن 17م، وهكذا، فقد كانت فكرة التنصير وراء تلك المظاهر من الاستشراق، ويقول المستشرق يوهان فوك: " لم يكن الاستشراق في بداية أمره، سوى أداة من أدوات التنصير ".

ورأى أحد الباحثين، أن من الأسباب الهامة لحركة الاستشراقية، ما خلفه الفكر الإسلامي من أثر على الفكر الديني النصراني في القرون الوسطى، وبالتالي أثره على الكنيسة الكاثوليكية وعلى الفاتيكان، ذلك أن تفشي التحرر العقلي، الذي أحدثته فلسفة ابن رشد 1126م – 1198م في الفكر الديني الأوربي، قد قاد إلى قيام حركات تمرد على الكنيسة، التي اعتبرتها عمليات زندقة وأسالت بسببها أودية من الدماء، إلى غاية ظهور مارتن لوثر، وإعلان الانشقاق وتكوين المذهب البروتستانتي في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي (1519-1521م)، ورأى بأن

البابوية هي أسوأ عدو للمسيحية، وذهب لوثر أبعد ما يكون في انتقاد الكنيسة الكاثوليكية فقال:" إن المسيح الدجال في الواقع ليس محمدا، بل البابا في روما ".

لقد أتاح فشل الحروب الصليبية للغرب أن يتعرف على الشرق الإسلامي وحضارته المزدهرة مما دفع الكنيسة إلى القيام بخطوات احترازية لمواجهة مشاعر الخوف والدهشة والإعجاب أيضا، للحيلولة دون تغلغل الإسلام في نفوس المواطنين الغربيين، لذا عملت جاهدة على تشويه صورته، وقد أشار إلى هذه المسألة المهمة الباحث الفرنسي ماكسيم رودنسون Maxime Rodinson (1915-2004م) الذي أكد بأن تلك المشاعر تجاه الإسلام، قد أفرزت نتيجتين هامتين: أولاهما السعي نحو وحدة أيديولوجية أوربية متكاملة في مواجهة الفكر الإسلامي وحضارته، وثانيهما أن الكنيسة قد عملت على تثبيت الإيمان المسيحي من خلال عرض صورة مشوّهة عن الآخر، وإيصالها إلى أذهان المواطنيين الغربيين.

كما عمد المستشرقون إلى محاولة تشكيك المسلمين في دينهم، وإلصاق تهم التأخر والانحطاط والاستبداد به، واصفين الإسلام بالجمود وعدم القدرة على مواكبة العصر، علاوة على تركيزهم على القضايا الخلافية في الفكر الإسلامي، والرفع من شأن المذهبية والفرق الشاذة المغالية، بهدف ضرب الوحدة بين المسلمين، وإشغالهم عن القضايا الأساسية.

لقد ظل العرب المسلمين الذين يسمون أحيانا " بالساراسين أي أصحاب الخيام " بالنسبة لمعظم المسيحيين الأوربيين على مدار قرون، بأنهم مجرد كفرة وثنيين، وبالتالي لا يستحقون من الناحية الدينية اهتماما خاصا أو تدقيقا، كما سادت في نفس الوقت كل أنواع الأساطير الغريبة والمشينة عن هؤلاء بين المتعلمين والجماهير على السواء، الأمر الذي يعكس شعور المسيحيين بالخوف والعداوة تجاه عدو يهددهم، لا يعرفون عنه إلا القليل.

غير أن الأمر كان مختلفا إلى حد ما في إسبانيا، حيث كان الاحتكاك الإسلامي المسيحي اليهودي أكبر، والاختلاط الثقافي أوسع، مما قل له نظير في باقي أوربا، وقد حصل امتزاج ثقافي على قدر كبير على المستوى الشعبي، مما جعل بول ألفاروس Paul Alvarus المتوفى عام 861م، يشير إلى تلك الجاذبية بالقول:" يحب المسيحيون قراءة أشعار وقصص العرب....وا أسفاه كل الشباب المسيحي الموهوب

يقرأ الكتب العربية ويدرسها بحماس ...إنهم يزدرون الأدبيات المسيحية، فيعتبرونها لا تستحق الاهتمام .."

والواقع، أن محاولة تجاهل الأوربيين للدور العربي الثقافي والعلمي خلال المرحلة الوسيطة، قد عبرت عنه الباحثة ماريا روزا مينوكال Maria Rosa Menocal في كتابها الصادر عام 1989م تحت عنوان" الدور العربي في تاريخ الأدب القروسطي تراث منسي "، حيث كتبت:" يعاني الغربيون-الأوربيون من صعوبة كبيرة في تصور إمكانية أن يكونوا بشكل ما مدينين جديا للعالم العربي، أو أن العرب لهم أهمية مركزية في صناعة أوربا العصور الوسطى ".

يمكن القول بأن الإسلام قد احتل موقعا فريدا في تخيلات الأوربيين الغربيين منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين فصاعدا، ذلك أنه كان الآخر المتمايز عن أوربا، على خلاف أصحاب الديانات أو الحضارات الأخرى، فقد كان اليهود أقلية تحت النظر، تقيم وسط المجتمع الأوربي، وهي في متناول اليد، وكانت الصين والهند وكل الشعوب والأماكن الأخرى الغريبة بعيدة للغاية، ولم تشكل بدورها أي تهديد مباشر للأوربيين، وعلى النقيض تماما، كان عالم الإسلام يقع على حدود العالم المسيحي، وكان يشكل البديل الثقافي والسياسي الأقوى والأقرب إليه.

وإجمالا لقد هدف الدافع الديني إلى تحقيق الآتي:

- الوقوف في وجه الإسلام ومنع تقدمه أو الحيلولة دون أن يكون له ي تأثير في البيئة الأوربية.
- محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعفه وإبرازها، والتشكيك في العقيدة الإسلامية.
- بث التخاذل الروحي، وجعل المسلم يشعر بعقدة النقص، ودفعه للارتماء في أحضان المدنية الغربية.
- نشر الآراء المسيحية بين المسلمين، ومحاولة تنصيرهم.

لقد أعلن المستشرق الفرنسي غابريال هانوتو Gabriel Hanoteau صراحة الرغبة الدينية في تحطيم المسلمين والعرب حيث كتب يقول: " لابد من العمل على تفكيك تلك الرابطة التي تجمع بين المسلمين شرقا وغربا على سطح المعمورة، فتجعل منهم أمة واحدة وهي رابطة الدين ... إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين كفيلة

بأن تجعل المسلم في شرق الأرض يهب لنصرة المسلم في غربها، فهي عامل مؤرق لفرنسا في مستعمراتها ".